الإعجاز البياني

في القرآن العظيم

سورة الزلزلة والعاديات والقارعة

محمد مبارك المزيودي

سورة الزلزلة

مختلف فيها ، وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ الزلزلة: ١ – ٨

مقاطع السورة

1 ـ **مشهد الزلزلة :** ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ الزلزلة: ١ – ٥

2 ـ **ما يتلو ذلك المشهد :** ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٦ – ٨

عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

﴿ من قرأ " إذا زلزلت " عَدَلَتْ له بنصف القرآن ﴾ رواه الترمذي

التفسير والبيان

1 ـ **مشهد الزلزلة :** ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ الزلزلة: ١ – ٥

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ الزلزلة: ١

لا تكاد الأرض تخلو من زلزال هنا وزلزال هناك ، فهل أرادت الآية شيئاً من تلك الزلازل ؟؟ كلا ، ولذلك تم تعريف الزلزال بإضافته إلى ضمير الغيبة ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ فأفادت هذه الإضافة معنى التخصيص ، أي هو زلزال بعينه يكون إرهاصاً لقيام الساعة ، **فهل هو زلزال واحد أم زلازل عديدة ؟؟**

لو كان زلزالاً واحداً لكان زلزالاً عظيماً ، ينهار معه كل شيء في الأرض ، وهو ما وصفه جل شأنه بذكر مدى الهول الذي سيشهده الناس من هذا الانهيار العظيم ، وهو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ

كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ الحج: ١ – ٢

فمع هذه الزلزلة يذهل الإنسان عن كل شيء سوى نفسه ، ولا يكون له هم سوى النجاة من أهوال هذا المشهد .أما الزلزال المذكور في هذه الآية فزلزال يقف الإنسان أمامه متأملاً ومتسائلاً : ﴿ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ الزلزلة ، : ٣ . وهو موقف لا يمكن للإنسان أن يقفه بأي حال من الأحوال إذا كان الزلزال على الوجه المذكور في سورة " الحج " ، إنما هو مشهد آخر يكون فيه الزلزال محدوداً في المكان وفي الزمان ، يحْدُث وينقضي مراراً وتكراراً ، ومبعث تساؤل الإنسان هو كثرة هذه الزلازل . وذلك أن الأرض لا تخلو من زلزال هنا أو هناك ، ولكن على فترات متباعدة ، فإذا خرجت زلازل الأرض عن نظامها المعهود لم يملك الإنسان نفسه من التساؤل : ﴿ مَا لَهَا ﴾ . **وقد أخبرنا النبي ﷺ بأن الزلازل تكثر بين يدي الساعة** .**وذلك في حديث رواه** البخاري وأحمد

إذاً فقوله : ﴿ زِلۡزَالَهَا ﴾ لا يعني به زلزالاً واحداً ، بل هي زلازل كثيرة ، ثم إن الأمر لا يقف عند حد الكم ، بل يتجاوزه إلى الكيف ، وهو أن يكون بعض هذه الزلازل ذا دمار واسع ، وليس ببعيد عن الأسماع ما حدث في تسونامي من دمار هائل بسبب زلزال حدث في قاع المحيط ، ولم يَمْضِ كبير وقت حتى حدث زلزال آخر في اليابان نشأت عنه أضرار واسعة وخطيرة . فهذا التكرار القريب والواسع المدى إنما هو إنذار للناس بقرب الساعة .

ومع مُضيّ الزلازل على هذا النسق لا يملك الإنسان إلا أن يتساءل : ﴿ مَا لَهَا ﴾.

﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴾ الزلزلة: ٢

- الأرض كوكب يدور في الفضاء حول الشمس في مسار مُقَدّرٍ لها ، ولا تملك أن تنحرف عنه قَيْد أنملة ، ثم هي تدور حول نفسها بزاوية محورية ثابتة ، **فما الذي يحفظ الأرض من الخروج عن تلك الأبعاد ؟؟**

إنها الأثقال . وقد سرت عليها دلالة الإخراج لأنها مُوْدَعة في باطن الأرض ، وهذه الأثقال هي الحديد المنصهر وما اختلط به من مادة الأرض . ومظهر إخراج الأرض لهذه الأثقال هو البراكين . ويدخل في ذلك أيضاً قول رسول الله ﷺ : ﴿ **تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة** ﴾ وما يسري على الذهب والفضة يسري على سواهما من معادن الأرض .

وإخراج الأثقال أيضاً لا يكون على الوجه الذي ينهار معه نظام الحياة ، بل يكون على وتيرة محدودة لا يملك الإنسان أمامها إلا أن يتساءل : ﴿ مَا لَهَا ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ الزلزلة: ٣

عُطِفت هذه الآية على ما سبقها ، ولذلك هي داخلة في جملة الشرط ، وليست جواباً له ، ولو جاءت الآية من غير واو لكانت جواباً للشرط ، ومع ذلك فإنها أقرب إلى أن تكون جواباً للشرط ، وذلك بالنظر إلى أن الآيات الثلاث تتوجه إلى محورين اثنين :

الأرض	**الإنسان**
﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾	﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾
﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾	

فالإنسان يعيش في الأرض التي مهدها الله لمعاشه ، فيألفها وهي على ما قدّره الله لها من قرار ، فإذا اقتربت الساعـة خرجت عن نسقها المعهود ، فكثرت فيـها الزلازل والبراكين ، حينئذ لا يملك الإنسان نفسه من أن يتساءل : ﴿ مَا لَهَا ﴾ أي أن اضطراب الأرض وسؤال الإنسان مرتبطان كارتباط الفعل ورد الفعل ، وإن شئت قل : كارتباط الشرط بجوابه .

أي أن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ هو جواب الشرط برغم الواو التي جعلته معطوفاً على الشرط ، ويؤيد ذلك أن قوله تعالى في الآية التالية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ جاء التفاتاً إلى سؤال الإنسان ، أي أن الأرض تجيبه على سؤاله ، فإذا كان قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ جواباً للشرط **فلماذا جعله الله معطوفاً على الشرط نفسه ؟؟**

إن اللغة تحمل في أبنيتها سمة الواقع الذي تعبر عنه ، ومن ذلك أسلوب الشرط ، فجواب الشرط يأتي في زمن لاحقٍ للشرط ، وليس في زمن الشرط نفسه ، فالإكرام في قولك : إذا جئتني أكرمتك ، يأتي لاحقاً للمجيء ، فإذا عُطِف الجواب على الشرط كان ذلك مؤشراً على التلازم الشديد بين الشرط والجواب ، وإلى سرعة تحقق الجواب حتى لكأنه جاء مترافقاً مع الشرط وليس لاحقاً له ، ومن صور استخدام هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى قوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ الزمر: ٧١

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ الزمر: ٧٣

الآية الأولى جاءت في شأن أهل النار ، وقد جاء جواب الشرط فيها على بابه ، أما الآية

الثانية فقد جاءت في شأن أهل الجنة ، وقد اقترن فيها جواب الشرط بالواو ، عَطْفَاً على جملة الشرط : ﴿ جَآءُوهَا ﴾ . فكانت هذه المغايرة في التعامل مع جواب الشرط توجّهاً إلى بيان مخصوص ، فمع أهل النار ذكر جل شأنه جواب الشرط على بابه للدلالة على تأخر خيار العذاب عند الله تعالى ، ومع أهل الجنة قرن جل شأنه الجواب مع الشرط بعطفه عليه بحرف العطف للدلالة على أن الفسحة الزمنية التي تكون بين الشرط وجوابه تكاد أن تكون معدومة .

ومن هذا الوجه تم عطف جواب الشرط : ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ على الشرط المتعدد ﴿ زُلْزِلَت ... أَخْرَجَتْ ﴾ . فدل بذلك على أن التفات الإنسان إلى ما يطرأ على الأرض من تغيرات التفات سريع ومباشر ، وذلك بالنظر إلى ما يلحقه من انزعاج شديد وقلق بالغ مما يراه من اضطراب الأرض .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ الزلزلة: ٤

هذه الآية والآية التالية لها هما الرد على سؤال الإنسان ﴿ ما لها ﴾ والحديث هنا ليس كلاماً ككلام البشر ، إنما هو حديث دلالة : وهو أن الإنسان ، ساعة ما يشهده من تقلب في أحوال الأرض ، يعلم بأن الله أوحى لها .

- عن أبي هريرة ﷺ قال :

قرأ رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : ﴿ أَتَدْرون ما

أخبارُها ؟ ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ﴿فإنّ أخبارَها أن تَشْهَدَ على كل عَبْدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها ، تقول : عَمِلَ يومَ كذا كذا وكذا ، فهذه أخبارها ﴾ رواه الترمذي

فقد اختار رسول الله ﷺ من حديث الأرض شهادتها على الإنسان في موقف الحساب ، إلا أننا نجد أن قوله : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ جاء سابقاً لمشهد يوم الحساب الذي ذكرته الآيات الثلاث الأخيرة ، وليس في ذلك تعارضاً مع الحديث ؛ لأن النبي ﷺ نظر إلى عموم دلالة : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فأخذ منه دلالة حديث الشهادة عند الحساب . أي أن الأرض تتحدث حديثين ؛ حديث دلالة بما يطرأ عليها من تغيرات ، إيذاناً بقرب قيام الساعة ، وحديث تشهد به على الإنسان عند الحساب .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ الزلزلة: ٥

● الوحي في اللغة هو الكلام الخفي ، ووجه الخفاء في وحي السماء أن الله تعالى يُلْقي كلامه إلى الرسل فلا يسمعه أحد سواهم من الناس . وكذلك هو وحي الله للأرض ، يتوجه إليها تحديداً ، فلا ينتبه إليه أحد من الخلق سواها ، فالأرض تسمع وتتكلم ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: ١١

● ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ لقد درج البيان في القرآن على استخدام الحرف " إلى " مع فعل الوحي ، ولذلك توجه التفسير إلى أن ﴿ لَهَا ﴾ بمعنى : إليها ، وليس هكذا تُؤْخَذ الكلمة ،

لأن المولى عز وجل لا يعدل عن حرف إلى آخر إلا وكان من وراء ذلك بيان مقصود ، **فما الغاية من ذلك ؟**

الحرف " إلى " حرف يفيد الغاية ، واستخدامه يفيد أن الغاية التي يُرَاد للوحي أن يصل إليها هي الذات المقصودة بذلك الوحي . وفي كل أفعال الوحي الواردة في كتاب الله جاءت التعدية بالحرف " إلى " وهو ما بَرّر فهم اللام في ﴿ لَهَا ﴾ على أنها بمعنى "إلى" وفي هذه الحالة لنا أن ننظر إلى أن " إلى " قد تم التصرف فيها لتصبح فقط لاماً ، وهو أمر ممكن إذا التفتنا إلى أن الحرفين الأول والثالث من الحروف التي يطرأ عليها الحذف أو التبديل في بعض أبنية الكلام العربي ، أما اللام فلا يسري عليها هذا الأمر.ولذلك أقول : إنه قد تم حذف الهمزة والألف ، وبقيت اللام ، **فهل في ذلك من دلالة ؟**

نعم . والدلالة هي الاختصاص ، وهو معنى من المعاني الكثيرة للام والمدونة في كتب اللغة ؛ ووجه الاختصاص في ذلك أن أمر الساعة أمر واسع الأرجاء ، وهو ما يسْتلزم دقة الأمر المُوْحَى به إلى الأرض ، فلا يُفْضي أيٌّ من تلك الزلازل إلى انهيار نظام الحياة ، بل هي زلازل محدودة ومتقاربة ، يجد الإنسان معها مجالاً للتساؤل : ﴿مَا لَهَا﴾

2ـ **ما يتلو ذلك المشهد :** ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ الزلزلة: ٦ – ٨

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ الزلزلة: ٦

اضطربت التفسيرات في بيان هذه الآية ، وذلك من حيث صلتها بما سبق ، ومن ذلك قولهم : إن قول الإنسان : ﴿ مَا لَهَا ﴾ يكون بعد البعث . وقد علمنا أن الناس عند الخروج من القبور ليسوا في فسحة من الطمأنينة تتيح لهم أن يتساءلوا :﴿ مَا لَهَا ﴾ ، هذا فوق أن الناس بعد البعث تنكشف أمامهم الحقائق التي كانت غائبة عنهم في الحياة الدنيا .

- ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ الأولى ، إلا أن بينهما اختلافاً ، فالموضع الأول مقصور على زمن الزلازل والبراكين قبيل يوم القيامة ، أما الموضع الثاني فهو ظرف زمان لصدور الناس عن قبورهم . وكل ذلك تم النظر فيه إلى المساحة الزمنية التي يستوعبها حدث بعينه ، فهذه المساحة هي ''يوم ''سواء استغرق يوماً كأيامنا أو عاماً أو حتى ألف عام . فزلزلة الأرض وإخراج أثقالها يوم ، وصدور الناس من قبورهم ليروا أعمالهم أيضاً يوم ، وكل ذلك تستوعبه أيضاً كلمة يوم ، إذ هو يوم القيامة ، يبدأ بتلك الزلازل ويمتد إلى عرض الناس ليروا أعمالهم .

- ﴿ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ ﴾ الصّدَرُ : ضد الوُرُوْد ، يُقال : وَرَد الماءَ إذا أتاه ، ويُقال : صَدَرَ عن الماء إذا انصرف عنه . ثم قال :﴿ ٱلنَّاسُ ﴾وهو لفظ عام يسري على الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، **فما الذي ورده الناس حتى يصدروا عنه ؟؟**

إنه القبر ، إذ أن كل واحد من الناس محكوم عليه بأن يَرِدَ حياض الموت ، فإذا قضى الله ببعثهم صدروا عن حياض الموت '' القبور '' أي انصرفوا عنها ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

- ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شَتّ ، وأمر شَتّ أي متفرق ، وقد قصر القرطبي والنسفي وابن

كثير هذه الدلالة على افتراق الناس إلى فريقين ، فريق إلى الجنة وفريق إلى النار وهو بيان لا يتوافق مع طبيعة الكلمة ، حيث أن الكلمة جمع ، والجمع لا يمضي إلا على ثلاثة فما فوق ، وانقسام الناس إلى فريقين لا يبلغ درجة الجمع .

ثم إن كلمة : شَتّ أو شَتّى تعني : متفرق ، فتم جمعها في الآية للدلالة على مستويين من تفرق الناس :

الأول : شَتّ على مستوى الأمة الواحدة : وذلك أنهم لا يصدرون جميعاً في آن واحد ، بل يصدرون أفواجاً ، حتى إذا اجتمعوا في موقف الحشر كانوا على مراتبهم في صعيد واحد . فأمة محمد ﷺ تصْدُر شَتّاً ، أو شَتّى ، من قبورهم .. فريق السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ... وفريق السبعة الذين يظلهم الله في ظله ...وفريق أصحاب منابر النور ... وغير ذلك من فِرَق ...

الثاني : شَتّ على مستوى الأمم : وذلك أن كل أمة تصدر عن قبورها منفصلة عن غيرها من الأمم . و ﴿ ٱلنَّاسُ ﴾ لفظ عام ، تم استخدامه ليستوعب الأمم جميعاً .

- ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ رأى البعض أن المراد من رؤية الأعمال هو الدخول إلى الجنة أو الدخول إلى النار ، وهو رأي لا يستقيم ؛ لأن تفصيل هذه الرؤية في قوله تعالى:﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٨ يستوجب أن يذوق المؤمنون النار ، لأنه لا أحد من أهل الإيمان مُعافىً من اقتراف الشر في دنياه ، وقد علمنا يقيناً أن أهل الإيمان والإحسان ينجيهم الله من عذاب النار ، أي أنهم لن يروا ما فعلوه من سيئات في دنياهم .

واختار البعض أن المراد برؤية الأعمال هو ما يكون عند الحساب ، وهو الصحيح عندي ؛ لموافقته للسياق العام . وقد بُني الفعل ﴿ يُرَوا ﴾ للمجهول للدلالة على أن

الإنسان غير مؤهل في تكوينه لرؤية عمله بمجهوده الذاتي ، إنما يراه بأمر من الله .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٧

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٨

آيتان جاءتا على نسق واحد ، ذكرت الأولى عمل الخير ، وذكرت الثانية عمل الشر . فكل إنسان يرى يوم الحساب ما عمله في دنياه ، خيراً كان أم شراً .

● ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ المثقال مشتق من كلمة : ثقل ، ولذلك استخدمه العرب في الموازين ، والوزن لا يكون إلا لشيء ذي حجم وكتلة ، والذرة في لسان العرب هي النملة الصغيرة ، و هي الهباءة التي تسبح في شعاع الشمس المتسلل عبر النافذة . ولم يتخيل الأسلاف أن الذرة سيكون لها معنى آخر ، وهو تلك الذرة المتناهية في الصغر والتي لا تُرى حتى بأكبر المجاهر ، وإذا كان الأسلاف الكرام قد قالوا أن النملة أو الهباءة ليس لأيٍّ منهما وزن فإن العلم المعاصر قد أثبت أن لهما وزناً ، بل وأثبت أن الذرة بمفهومها العلمي المعاصر أيضاً لها ثقل معلوم .

فالذرات المكون للعناصر المادية تبلغ العشرات ، أقلها وزناً ذرة الهيروجين ، ومقداره 1,0079 كتلة ذرية ، وهذا الوزن هو وزن كتلة نواة الذرة ، ويدور من حولها ألكترون واحد ذو شحنة سالبة مكافئ لشحنة النواة الموجبة ، ثم تتعدد الأوزان الذرية في بقية العناصر ، أي تتعدد كتلها ، ومع الكتلة يتحقق معنى المثقال : أي الوزن .

فلو أن الإنسان عمل عملاً ، خيراً كان أم شراً ، على مقدار مثقال هذه الذرة لرآه يوم

الحساب . ولكن عمل الإنسان ليس موصوفاً بحجم أو كتلة ليكون قابلاً للوزن .

فكيف يتم إجراء هذا الأمر عليه يوم القيامة ؟

وما علاقة الذرة بهذا المعنى ؟

هيكل الإنسان مكون من خلايا ، وكل خلية من هذه الخلايا مؤسسة على جملة من الذرات ، والنشاط الذي تُجْريه الخلية قائم على ارتباط هذه الذرات مع بعضها البعض عبر الألكترونات ، ومن خلال آليات هذا الارتباط المتعددة تتولد الطاقة ، وبالطاقة يؤدي الإنسان فعالياته . وهذه الطاقة بالإمكان قياسها ووزنها : فإذا حرّكت يدك لأمر ما كانت هذه الحركة طاقة حركية متحولة عن طاقة كيميائية ، وهذه الطاقة الكيميائية نتاج للحركة الألكترونية في الذرات المكونة لهذا العضو أو ذاك ، ومع الحركة الألكترونية يكون هناك فاقد في شحنة الذرة ، و قد علمنا أن أن ذلك الفاقد له وزن يدخل في جملة وزن الذرة .

وتوحيد لفظ الذرة في الآية يستوعب أدنى ما يكون من نشاط حركي أو قولي يؤديه الإنسان ، كالنظرة الخاطفة التي تستعصي على أن يلحظها أحد ، قال تعالى :﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر: ١٩ . فالطاقة المبذولة في عمل الإنسان هي في الأصل طاقة ذرية ، وهي في هذا الأصل غير موصوفة بخير أو شر ، والذي يحدد موقعها من هذا أو ذاك هو نية الإنسان . فحركة اليد المذكورة قبل قليل إن كانت مسحاً على رأس يتيم كانت خيراً ، وإن كانت سلباً لحق الغير كانت شراً .

وفي منظور الإنسان ومعلومه ليس هناك من بقاء لطاقة العمل بعد بذلها ، **فكيف يتم حفظها ليراها الإنسان يوم القيامة ؟؟**

لاحظ العلماء أن الطاقة المبذولة لا تندثر بعد بذلها ، بل تتحول إلى صورة أخرى ،

فافترضوا لذلك مبدأ علمياً أسموه " **انحفاظ الطاقة** " ويعني أن الطاقة المبذولة لا تندثر بل تُحفَظ ، ومع ذلك فإن هذا المبدأ لا يعدو كونه افتراضاً ، بمعنى أنه لم يَسْتوفِ كامل أركانه ليكون حقيقة علمية قاطعة ، **إذ كيف للطاقة التي بذلتها اليد أن تكون محفوظة ؟؟**

سأجيب على هذا السؤال عبر مسارين :

الأول : ذكرت أن حركة اليد كانت في منشأها طاقة ذرية ، تحولت من حالتها الذرية إلى حالة كيميائية تنتجها خلايا الجسد ، ثم تحولت هذه الطاقة الكيميائية إلى طاقة حركية ، وعند هذا الحد وقف الرصد العلمي ، إذ لم يلحظ أحد تحولاً لطاقة حركة اليد على رأس اليتيم إلى حالة أخرى . ولكن خضوع الطاقة لتلك التحولات يُسَوّغ احتمال وجود لهذا التحول ، وهو ما يفترضه مبدأ انحفاظ الطاقة . أي أن الطاقة الحركية الناتجة عن حركة اليد لم تندثر ، بل هي محفوظة ، ولكن في صورة أخرى يُظْهرها الله للإنسان يوم الحساب .

الثاني : الطاقة التي بذلتها اليد على رأس اليتيم تحولت إلى صورة أخرى ، ولكن ليس في ذات صاحب اليد ، بل في جسد اليتيم ؛ لأن مظهر الرحمة الذي يجده اليتيم في تلك المسحة يؤثر في نفسه تأثيراً طيباً ، ومن المعلوم أن ما تتشكل عيه النفس تنبني عليه فعاليات الإنسان " فكراً وقولاً وعملاً " وهذه المسحة قد تكون يسيرة في جملة ما تشكلت عليه نفس اليتيم ، ولكنها مع ذلك لا تعدم أن يكون لها نصيب في عمل ذلك اليتيم عند بلوغه الحلم . فطاقة حركة اليد على رأس اليتيم أصبحت طاقة فعلية أو قولية في ذات اليتيم .

ولهذا الوجه حد آخر ، وهو قول رسول الله ﷺ ﴿ **إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويـأخذها بيمينه ، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه أو فصيلـه ، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد** ﴾ رواه أحمد والترمذي . وقال ﷺ ﴿ **لأَعْلَمَنّ أقواماً من أمتي**

يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء ...﴾ رواه ابن ماجه

ففي الحديثين جعل رسول الله ﷺ للحسنات وزناً وكتلة :

فقوله ﴿**حسنات أمثال جبال تهامة** ﴾ يُقرّ أن لتلك الأعمال كتلاً يسري عليها معنى الثقل ، وواقع الحال أن ما يعمله الإنسان ليس له حجم أو كتلة ، إنما هو طاقة مبذولة يحفظها الله تعالى ، ويصبح لها حجم وكتلة ، وسبيل هذا الحفظ هو التكوين الذري وما يصدر عنه من طاقة ، فالذرة في مقاييس الوزن المتاحة لا وزن لها ، ومع ذلك فإن لها وزناً رياضياً أثبته العلماء ...

- درج البيان في القرآن عند اجتماع الجنة والنار أن يقدم ذكر النار على الجنة ، أما الآيتان المذكورتان فقد جاءتا على غير ذلك ، إذ تم تقديم الخير على الشر ، وفي ذلك بيان لأمرين :

الأول : أن الآيتين لا تشيران إلى جنة ولا إلى نار ، إذ لو كان الأمر كذلك لوجب تقديم آية عمل الشر على آية عمل الخير ، وعلى ذلك فإن المراد من الآيتين في قول بعض المفسرين هو ما يشهده الإنسان في موقف الحساب .

الثاني : تقديم عمل الخير على عمل الشر فيه إشارة إلى سعة رحمة الله تعالى ، فهو ينظر أولاً إلى ما عمله الإنسان من خير ؛ لأنه سبحانه قد يرحمه بالقليل منه ، ويغفر له بسبب هذا القليل كثير الشر الذي اقترفه في الحياة الدنيا .

سورة االعاديات

مختلف فيها ، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

العاديات: ١ – ١١

مقاطع السورة

1 ـ **المُقْسَم به :** ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ العاديات: ١ – ٥

2 ـ جواب القسم : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ﴾ العاديات: ٦ – ٨

3 ـ التعقيب على مضمون الجواب : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١ ﴾ العاديات: ٩ – ١١

المحور الأساس في المقاطع الثلاثة هو المقطع الثاني الذي ذكر الله فيه حقائق جُبل عليها الإنسان ، وقدّم لذكر هذه الحقائق بالقسم بالعاديات ، وختم البيان في المقطع الثالث بتذكير الإنسان بأن الله خبير بالعباد ، يعلم ما يجول في صدورهم .

التفسير والبيان

1 ـ المُقْسَم به : ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ ﴾ العاديات: ١ – ٥

يُقْسم المولى عز وجل في هذه الآيات بالخيل ، وقد قيَّد قَسَمَه بها بمشهد إقبالها على القتال ، وفي ذلك إشارة إلى أن أَجَلَّ ما تكون عليه الخيل في نفع الإنسان هو أن تكون مرصودة للجهاد في سبيل الله ، وهو قول رسول الله ﷺ : ﴿ **الخيلُ لِرجلٍ أجْرٌ ، ولرجل سِتْرٌ ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ : فأما الذي له أجرٌ فرجُلٌ ربطها في سبيل الله ، فأَطَال بها في مَرْجٍ أو روضةٍ ، فما أصابتْ في طَيْلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنه انقطع طَيْلُها ، فاسْتَنّتْ شَرَفَاً أو شرفين كانت آثارُها وأرواثُها حسنات له ، ولو أنها مرتْ بنهرٍ فشربت منه ، ولم يُرِدْ أن يسقي ، كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك أجر ...** ﴾ رواه البخاري

أطال بها : شدها إلى وتد بحبل طويل .

استْتنت : أفلتت من ذلك الحبل .

شرفـاً : ما ارتفع من الأرض .

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ العاديات: ١

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾ من الفعل عَدَا يَعْدُو عَدْوَاً ، وهو الجَرْي ، إلا أن العَدْوَ لا يكون إلا لذي قدمين ، أما الجَرْي فيكون لهؤلاء ولسواهم ، فالسفن تجري ، والأفلاك تجري ، والماء يجري ، ولا يُقال : السفن تعدو ...إلخ .

﴿ ضَبْحًا ﴾ الضَّبْح : صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْنَ ، وقيل إن الضَّبْح هو الضَّبْع في قول بعضهم ، وهو أن يمد ضَبْعَيْه ، أي عَضديه ، حتى لا يجد مزيداً . والقول الأول هو القول المختار ؛ لأنه الغالب ، ومع ذلك فإن القول الثاني يُفْضي إلى نفس الغاية التي يُفْضي إليها القول الأول ، وذلك أن الكائن الحي في حال السكينة يكون نَفَسُه مستقراً ، حتى أنك لا تكاد تسمع له صوتاً ، فإذا عدا أو بذل مجهوداً شاقاً تسارع نَفَسُه ، وكان لهذا التسارع صوت مسموع ، سماه العرب ضَبْحَاً إذا كان من الخيل .

وكذلك هو الشأن مع من فسّر الضّبْح بأنه الضَّبْع ، وذلك أن الخيل إذا مدت عضديها حتى لا تجد مزيداً كان ذلك مؤشراً على أنها قد بلغت أقصى سرعة لها في العَدْوِ ، فالكلمتان تدلان على العَدْو " الجَرْي " إلا أن دلالة الضَّبْح على عدو الخيل أوسع من دلالة الضَّبْع ؛ لأن الضَّبْح يحتمل الدلالة على مستويات عديدة من العَدْو ، أما الضَّبْع فيدل

على مستوى واحد ، وهو الحد الأقصى من العَدْو .

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ العاديات: ٢

- ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ ﴾ من الفعل : أَوْرَى يُوْرِي ، وهو إنشاء النار ، قال تعالى :﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ الواقعة: ٧١ . قال النسفي في معنى ﴿تُورُونَ﴾تقدحونها وتستخرجونها من الزناد . أي أن الخيل إذا عدت على الصخر أو على الحجر أنشأت ناراً ، ولكنه إنشاء مختلف ، فهو في آية الواقعة نار متصلة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ٱلنَّارَ﴾أما هنا فقد قال : ﴿قَدْحًا﴾وهو مجرد شرر ينبعث من وطء سنابك الخيل .

وهذا المعنى الذي تذكره الآية يتناسب مع لفظ :﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾وذلك أن الخيل لا تُوْري قَدْحاً وهي تمشي ، إنما تُوْريه وهي تعدو .

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ العاديات: ٣

- ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ ﴾ من أَغَارَ يُغِير ، ومنه الغارة ، وهي الهجمة الخاطفة على العدو ، وقد قيل في المثل: **الزيارة غارة** ، والمراد هو أن يكون زمنها قصيراً. وبذلك كان اختيار ﴿ المغيرات ﴾ متجانساً مع معنى ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ﴾في الدلالة على السرعة .

- ﴿ صُبْحًا﴾اختيار الصبح في هذا المشهد لم يأت من أجل موافقة رؤوس الآيات ، بل

تم اختياره لأن الخيل التي تتحدث عنها الآيات خيل مسلمة ، فكان من كمال بركتها وعَدْوِها في سبيل الله أن تكون غارتها صبحاً ، وقد ورد في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ما يبين وجه اختيار الصبح ، ومن ذلك قوله تعالى في شأن ثمود وما نزل بهم من عذاب :﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ الحجر: ٨٢ - ٨٣ . فكان هلاكهم ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ . وقالت الملائكة للوط عليه السلام في شأن هلاك قومه : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود: ٨١ . وقد أجمل جل شأنه هذه السُّنَّة في قوله : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ الصافات: ١٧٦ – ١٧٧ .

وقد اتبع النبي ﷺ هذه السنة في غزواته ، واتبعها الصحابة من بعده ، وهو ما روي عن أنس رضي الله عنه : **أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً ، وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغِرْ بهم حتى يُصْبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله والخميس ، فقال النبي ﷺ :﴿ خَرِبت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين ﴾** رواه البخاري ومسلم .

ولعل المسلمين ، إذا ما انتهجوا هذه السنة في قتال الأعداء أن يكون لهم نصيب من نصر العزيز الحكيم .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ العاديات: ٥

﴿ جَمْعًا ﴾ أي جمع الأعداء ، فقد اقتحمت هذه العاديـات ، وفرسانها على ظهورها ،

جمع الأعداء ، وقد بلغوا بهذا الاقتحام حده الأعلى ، وهو توسُّط جمع الأعداء ، وفي ذلك إشارة إلى أمرين :

الأول : دلالة ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ على الجَرْي الشديد انبنت عليها جملة أحوال : قَدْح الحصى والصخر ، إثارة النقع ، والثالثة توسّط جمع الأعداء ، وذلك أن الخيل إذا تواصل عَدْوُها حال القرب من الأعداء تنفتح لها بسبب هذا الاندفاع ثُغرة في صفوف الأعداء تصل بها إلى وسطهم . **والثاني :** المشهد المذكور ليس مَعْزُوّاً فقط إلى الخيل ؛ **لأن الخيل بفرسانها** ، فالخيل لم تتوسط جمع الأعداء إلا بحَثّ فرسانها لها .

2 ـ جواب القسم : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ العاديات: ٦ – ٨

أقسم جل شأنه بالعاديات على أن الإنسان ، كل إنسان ، مشتمل على هذه الصفات الثلاث :

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴾ العاديات: ٦

كَنُود : على وزن فَعُول ، وهي صيغة من صيغ المبالغة من : **كَنَدَ يَكْنُدُ كُنُوداً** ، أي كفر النعمة وجحدها . روى أبو أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿**الكَنُود هو الذي يأكل وَحْده ، ويمنع رِفْدَه ، ويضرب عبده**﴾ رواه الترمذي

ولم يبعد رسول الله ﷺ في هذا التعريف عن المعنى اللغوي ، وذلك أن **كُنُوْد** الإنسان

يمضي إلى مستويين : **الأول : كَنُوْد** يمضي به إلى الكفر بالله ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾العنكبوت: ٦٥ ، فقد كانوا مشركين قبل أن يركبوا البحر ، فلما ركبوه وأتاهم الموت من كل جانب دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجاهم من ذلك الخطر ليكونن من الشاكرين ، فلما نجاهم جحدوا ما أنعم به الله عليهم " كَنَدُوا " ومضوا على الشرك . **الثاني :** كُنُود نِعَم الله ، وهي نِعَم واسعة ومتعددة يعجز الإنسان عن إحصائها ، قال تعالى :وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٤ . فوصف الله الإنسان بأنه ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾بعد الإشارة إلى كثرة نعم الله عليه ، وهو وصف يتجانس مع وصفه بأنه **كَنُود** ، أي جاحد لنعمة الله عليه ، **فكيف يكون الإنسان مُقِرّاً للّه بنعمته عليه ؟؟**

الإقرار بنعمة الله يكون بالإنفاق منها في سبيله ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى: ١١ ، وقد أشار جل شأنه في الآية التي نحن بصدد بيانها إلى معنى النعمة ، وهو قوله : ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ وذلك لدلالة الربوبية على قيام الله تعالى على كل ما يحتاجه الإنسان ، فكل ما يصل إلى الإنسان من خير إنما هو نعمة من ربه . وحال الإنسان مع هذه النعم أنه **كَنُود** ، أي جاحد ، ومظهر هذا الجحود هو قبض ذات اليد ، وعدم الإنفاق على المحتاجين ، وهو التعريف الذي ذكره رسول الله ﷺ ، ولو أردنا أن نختصر ما ورد في نص الحديث من وصف **للكَنُود** لقلنا هو البخيل ؛ لأن البخيل هو الذي ﴿**يأكل وَحْده ، ويمنع رِفْدَه** ﴾ فلو كان مقرّاً في قلبه بأن الله هو من يسّر له هذا الرزق لكان أحرص ما يكون على الإنفاق في سبيل الله ، وهو يسمع ربه يقول : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي

ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٧٦ ويقول :﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ التغابن: ١٧ . ويسمع رسول الله ﷺ يقول : ﴿ما نَقصَت صَدَقَةٌ من مالٍ ﴾ رواه مسلم والترمذي

فالله تعالى هو من أعطاك ما تجده في يديك من رزق ، وقد أخبرك أنه سيضاعف لك العطاء إن أنفقت مما في يديك ، فإذا فعلت كان ذلك إقراراً منك بنعمة الله عليك ، وأما إن وجدت في نفسك إمساكاً عن الإنفاق ، خشية الفقر أو عدم ثقة في أن ما يخرج من يدك سيجعل الله له عوضاً ، فإن ذلك سيكون جحوداً منك لنعمة الله ، أو جحوداً لكونه سبحانه رباً قائما عليك بدلالة ربوبيته .

- في العديد من المواضع التي تذكر صفة لازمة للإنسان نجد استثناء للذين آمنوا من الوقوع فيها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المعارج: ١٩ – ٢٢ .وقوله تعالى :﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ... ﴾ العصر: ١ – ٣ ... فهي أحوال لا مناص للإنسان من أن يكون متلبساً بها ، ولا خلاص له من ربقتها إلا بالإيمان . أما الآيات التي لا تذكر استثناء من الصفة فإنها تقطع بأنه لا مناص للإنسان من أن يكون مشتملاً عليها ، مؤمناً كان أم كافراً ، ومن ذلك وصف الإنسان بأنه **كَنُود** فكان عدم الاستثناء منها إشارة إلى حتمية اشتمال كل إنسان على قَدْرٍ من دلالتها ، بما في ذلك أهل الإيمان . وسبب ذلك أن الله تعالى جعل هذه الصفة مناطاً من مناطات ابتلاء الإنسان الكبرى ، أيستسلم لها أم يجاهد نفسه في مكافحتها ، وهو إذ يُكافحها لا يَسْلَم من بعض آثارها ، وهذا هو حال الإنسان في دنياه ، لقول رسول الله ﷺ : ﴿ كل بني آدم خطاء ،

وخير الخطائين التوابون ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ العاديات: ٧

ذكر أهل التفسير في بيان الهاء من قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ قولين :

- وإن الإنسان لشهيد على ذلك ، أي على كُنُوده .
- وإن الله لشهيد على كُنُود الإنسان .

والقول الأول هو عندي الأوْلى بالاتباع ، وذلك أن قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أُعيد ذكره في الآية التالية ، ولم يختلف أهل التفسير في رده إلى الإنسان . ثم إن إرجاع الضمير إلى الإنسان من شأنه أن يجعل الآيـة بيانـاً لمستوى **الكُنُود** الذي وُصِف به الإنسان ، وذلك أن **الكُنُوْد** " الجحود " قد يصدر عن الإنسان وهو لا يُدْرك أنه على شيء منه ، وهو في هذه الحالة قد يكون معذوراً ، أما المصيبة الكبرى فهي أن يكون الإنسان **كَنُوداً** وهو شاهد على نفسه بذلك ، وقد قال الشاعر :

فإنْ كُنْتَ لا تَدْري فتلك مصيبة وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظم

فالبخيل ، مثلاً ، كَنُود لنعمة ربه ، وذلك أنه يَبْخَل بماله وهو يعلم أنه يخالف أمر ربه ، أي شهيد على ذلك الكُنُود .

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات: ٨

ذكر أهل التفسير لهذه الآية ثلاث قراءات :

الأولى : إنه لأجل حب الخير لبخيل .

الثانية : إنه لحب الخير لقوي .

الثالثة : قال الفراء : نَظْم الآية أن يُقال : وإنه لشديد الحب للخير ، فلما تقدم الحب قال : شديد ، ولم يذكر معها الحب ، وكأن الأصل فيما يرى الفراء : وإنه لحب الخير لشديد الحب .

أما قول الفراء فقول فيه تكلف كبير ،لا محل له في قراءة الآية ، وأما القول الأول فمردود ، وذلك أن الآية بصدد ذكر خُلُق جُبِل عليه الإنسان ، والناس ليسوا بخلاء جميعاً ، أما القول الثاني فقد أصاب فيه النسفي كبد المعنى ، إلا أن لم يَكْسُ العظمَ لحماً ، إذ اكتفى في بيانه بذكر مقابله ، فقال : إنه لحب الخير لقوي ، وهو لحب عبادة الله لضعيف .

ولذلك فإنني سأرجع إلى القول الأول الذي رددته ، ولكن بعد استبعاد كلمة " بخيل " وإحلال كلمة " قوي " مكانها ، ليكون المعنى : وإنه لأجل حب الخير لقوي ، أي إنه لشديد الطلب للخير بسبب ما جُبِل عليه من حب الخير ، وقد قال ﷺ : ﴿ يَهْرَم ابنُ آدمَ ويَشِبّ معه اثنان : الحِرْصُ على المال ، والحِرْص على العُمُر ﴾ رواه البخاري ومسلم

فقوله ﴿ ابنُ آدمَ ﴾ يمضي إلى الناس جميعاً ؛ ذكرهم وأنثاهم ، مؤمنهم وكافرهم . وقوله ﴿ ويَشِبّ ﴾ يعني به قوة الشباب ، ثم ذكر ﷺ الصفتين اللتين تبقيان عارمتين في نفس الإنسان : الحرص على المال "وهو معنى من معاني حب الخير" والحرص على العمر . أي أن الإنسان لا تجده إلا شديداً في طلب الخير ، وما ذاك إلا ﴿ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ ﴾ أي لأجل ما جُبِل عليه من حب الخير .

- وبين الآيات الثلاث ارتباط وثيق ، وفيما يلي رسم يبينه ، ومن بعده تفصيل له :

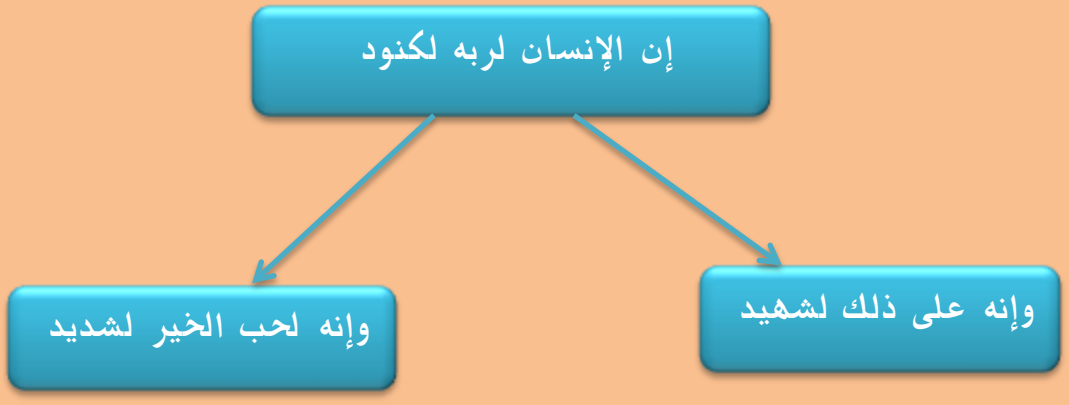

فالإنسان **يَكْنُد** ربه وهو مشتمل على حالتين :

الأولى : يَكْنُد ربه وهو شهيد ، أي يشهد من أمر نفسه ما يدله على أنه واقع في هذا الخلق الذميم مع ربه .

والثانية : ثم هو يجد في نفسه حباً واحتياجاً دائمين للخير ، وهو يعلم أن هذا الخير ليس تحت أمره وطلبه ، فلو أنه ربط بين حبه للخير واحتياجه له وبين تيسيره له لأدرك أن له رباً يليق به أن يُنْسَب إليه ذلك الفضل ، وفي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ الملك: ٣٠

فالإنسان **كَنُود** لربه وهو يعلم أنه متلبس بذلك الخُلُق ، ويرى من نفسه تعلقاً شديداً بخير لا يتيسر إلا بيد رب قدير ، وفي ذلك تسفيه لكل مستغرق في صفة **كَنُود** .

العلاقة بين ركني القسم

أقسم جل شأنه بالعاديات ، وهي الخيل ، على أن الإنسان لربه لكنود ، وهو جواب القسم . والكُنُود معنى لا يتحقق إلا مع وجود الخير ، أي أن الإنسان يكنُد الخير الذي يسّره له ربه ، **فما العلاقة بين الخيل والخير ؟**

قال ﷺ ﴿ **الخيل معقود في نواصيها الخير والأجر والمَغْنَم إلى يوم القيامة** ﴾ رواه البخاري ومسلم . والخير المعقود بنواصي الخيل هو خير مرصود للإنسان ، وقد أخبر جل شأنه في جواب القسم أن الإنسان لحب الخير لشديد ، وهاهو ﷺ يخبر أن الخير معقود في نواصي الخيل ، **فمن أراد الخير فعليه بالخيل** . ومظهر حضور الخير في الخيل على ثلاثة وجوه : **الأول :** في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ جعل رسول الله ﷺ للذي يربط خيلاً في سبيل الله أجراً " خيراً " في كل ما تتقلب فيه تلك الخيل :

- فله حسنات بكل ما تأكله في روض أو مرج أو في مربطها .
- وآثار خَطْوها وأرواثها يُكْتَب له بها حسنات .
- وإذا شربت بغير علم صاحبها كان ذلك حسنات له .

وفي بقية الحديث ذكر رسول الله ﷺ أنها سِتْرٌ لمن لم يربطها في سبيل الله ، إنما كان ربطه لها ﴿ تَغَنّياً وتَعَفُّفاً ﴾ ثم ﴿ لم يَنْسَ حق الله في رقابها ولا ظهورها ﴾

واختصاص الخيل من بين سائر الدواب بهذا المقام يشير إلى أمرين :

- الخيل خَلْق شريف عند الله تعالى ، ومن شرف خلقها أن الله عز وجل أقسم بها ، وأنه سبحانه قضى لها بالكرامة عند الإنسان بما قضى به من حسنات لمن اقتنى خيلاً .

- وبالنظر إلى أنه سبحانه '' حكيم عليم '' فإنه لم يُقرّر هذه الصلة بين الإنسان وبين الخيل إلا لوجود سبب لهذه الصلة ، لا يقف بالخير المعقود في نواصي الخيل عند حد الرباط في سبيل الله ، بل يتجاوزه إلى ما هو أوسع وأجل ، وهو قوله ﷺ ﴿ تَغَنّياً وتَعَفُّفاً ﴾ وقد قيل في تفسير هاتين الكلمتين :

تَغَنّياً : استغناء عن الناس بطلب نِتَاجها .

تَعَفّفاً : عن سؤالهم بما يعمله عليها ويكتسبه على ظهورها .

كلمة'' تَغَنّي '' على وزن تَفَعّل ، وهو وزن يفيد تحرّي الغِنى ، أي طلبه ، وقد قصر التفسير المذكور ذلك الطلب على ما يكون من نتاج الخيل ، إلا أنني أراه أوسع من ذلك ، وهو **أن اقتناء الخيل وإكرامها سبب يسوق اللّه به الخير إلى صاحبها** .

الثاني : والمظهر الثاني لانعقاد الخير بنواصي الخيل هو ما يشير إليه القسم بالخيل ، فهو جل شأنه لم يُقْسم بها مجردة ، إنما أقسم بها حال تلبسها بالقتال في سبيل الله ، وهو المشهد الرائع الذي رسمته الآيات الخمس الأولى ، فالجهاد ذروة سنام الإسلام ، والخير المترتب عليه هو الخير الأعظم . وللخيل نصيب في هذا الخير ، فقد جعل لله للراجل من المجاهدين سهماً واحداً وللفارس سهمين ، وكأنهما سهم للفارس وسهم لفرسه .

ويأبى الله أن ينقضي مشهد الخيل في الحرب مع تقدم تقنيات القوة واستبدال الخيل بالآليات العسكرية ، فكان من عجيب تدبير الله أن الذين ابتكروا المحركات جعلوا الحصان وحدة قياس القوة الدافعة ، لتبقى الخيل بذلك حاضرة في كل مواطن القتال ، إن لم يكن بشخصها فبمقياس قوتها .

3 ـ **التعقيب على مضمون الجواب :** ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾ العاديات: ٩ – ١١

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾

الاستفهام في الآية يحمل معنى التوبيخ والتسفيه لما هو عليه الإنسان من **كُنُود** ، إذ يفعل ما يفعل من كُنُودٍ لربه وكأنه لا يعلم أن سيُبْعَث من قبره ليُحاسَب على ذلك **الكُنُود** .

- ﴿ بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ في سورة "الانفطار" كانت البعثرة واقعة على القبور ذاتها : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ الانفطار: ٤ . أمـــا في هذه السورة فالبعثرة واقعة على ما في تلك القبور ، والعلاقة بينهما علاقة مجاز مرسل ، ونوعها مَحَلّية ؛ ففي آية "الانفطار" ذُكِر المحل القبور ، وأراد الحالّ فيها ، وهو ﴿مَا﴾ في آية "العاديات" .

فماذا في هذه القبور ؟

أنها أعجـاب الأذناب ، وذلـك أن كل إنسان يبلى جسده وعظمه بعد موته إلا عظم واحـد ، وهو عجب الذنب ، لقـول رسول الله ﷺ : ﴿ **ليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، ومنه يُرَكّب الخلق يوم القيامة** ﴾ رواه البخاري

فهذه الأعجاب المتبقية في القبور الظاهرة والقبور المندثرة تُبَعْثَر يوم القيامة بأمر من الله تعالى ، والبَعْثَرة في اللغة لفظ يفيد تحريك الأشياء على غيرنظام ، وبالتالي تكون النتيجة عشوائية ، أي غير مُؤطّرة بنظام يحكم أجزاء ما تم تحريكه ، أما بالنسبة للمولى عز وجل فإنه

إذا قضى ببعثرة شيء ما ، كانت هذه البعثرة مفضية إلى نظام لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، والغاية من هذه البعثرة هو الإعداد لنظام التفويج المذكور في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ النبأ: ١٨ وذلك أن الناس لا ينطلقون من قبورهم إلى موقف الحشر على غير نظام ، بل ينطلقون أفواجاً ، وذلك على حسب مراتبهم في الدين ؛ السبعون ألفاً فوج ، والذين يُظلهم الله في ظله فوج آخر ... إلخ . هذا على مستوى الأمة الواحدة ، وكذلك هو الأمر مع تفويج الأمم ، فبعد الانتهاء من تفويج أمة تتلوها أمة أخرى ... وهكذا .

وقد استُخْدمت ﴿مَا﴾ الدالة على ما لا يعقل ؛ لأن أعجاب الأذناب المُوْدَعة في القبور ليست مما يعقل .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ العاديات: ١٠

قال عامة المفسرين : مُيِّز ما فيها من خير وشر .

وقال ابن عباس : أُبْرِز ما فيها .

وقول ابن عباس هو القول الأظهر ؛ لأن تمييز ما في الصدور من خير ومن شر يكون بعد تحصيلها ، أي إبرازها ، وفي ذلك أشارة إلى أن الصدور بمثابة مستودعات يُوْدَع فيها كل ما يعمله الإنسان ، فإذا كان يوم الحساب أظهر الله كل ما الصدور . وفي ذكر الصدور تحديداً استغراق لكل ما يكون من الإنسان ، ليس فقط قوله وفعله ، بل وما يجول في

صدره ، قال تعالى :﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ق: ١٦

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرٞ ﴾ العاديات: ١١

● هذه الآية في محل نصب مفعول به للفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ ووفقاً لقواعد اللغة فإن حق الهمزة في هذا الوجه هو الفتح لا الكسر ، وقد قرأها أبو السمال بالفتح كما ذكر القرطبي ، وأما نحن فليس أمامنا إلا أن نتدبر ما في القراءة من معنى :

إن سبب كسر همزة ﴿إِنَّ﴾ في ظل استحقاقها للفتح هو وجود فاصل بين الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ وبين جملة ﴿إِنَّ﴾ إذ لو كانت الجملة لصيقة بالفعل لوجب الفتح ، أي : أفلا يعلم أن ... **فماذا في هذا الأسلوب من دلالة ؟؟**

من قواعد اللغة أن همزة إن يجب كسرها عند ابتداء الكلام بها ، ولذلك كان كسر همزة ﴿إِنَّ﴾ بعد ملاحظة أن الأصل هو فتحها إشارة إلى أن خبرة الله تعالى بالعباد لا تأتي تَبَعَاً لما يصدر عنهم من أعمال ، بل هو خبير بهم ابتداء ، أي قبل خلقهم ، وبالتالي قبل أفعالهم .

● من الآية السادسة إلى الآية العاشرة جرى البيان باستخدام صيغة المفرد ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وفي هذه الآية تم استخدام ضمير الجمع ﴿رَبَّهُم بِهِمۡ﴾ وهو أسلوب يُعْرَف في اللغة باسم " الالتفات " وقد تم الالتفات فيه من المفرد إلى الجمع .

- ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : أي يوم تحصيل ما في الصدور .

﴿لَّخَبِيرٌ﴾ : دُكِر في بيانها أنها بمعنى " عليم " وهو بيان لا يروي الغليل ؛ لأن الاسمين " خبير ، عليم " ليسا سواء مع دلالة كل منهما على العلم ؛ فعلم الخبرة في عالم الإنسان مرهون بالمعالجة المتكررة ، وذلك أن الإنسان لا يكون خبيراً في إصلاح شيء ما إلا إذا عالجه مراراً وتكراراً . ولكن الله تعالى ليس في حاجة إلى هذه المعالجة ، **فما وجه دلالة هذا الاسم عليه سبحانه ؟**

لقد أراد جل شأنه أن يعلم الناس أنه لا يعاملهم بما يعلمه من أمرهم أزلاً ، إنما يعاملهم بما يَخْبُره منهم ، وهو أصل من أصول عدله سبحانه ورحمته ، وعلى ذلك فإن دلالة الخبرة على دقة العلم القائمة على كثرة المعالجة تفيد دقة علمه سبحانه بالناس جميعاً ، فرداً فرداً ، ومن مؤشرات هذه الدقة ما ذكرته من علم الله بما يجول في صدر الإنسان ، حتى وإن لم يَبُحْ به

سورة القارعة

مكية ، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ القارعة: ١ – ١١

مقاطع السورة

☐ أُدْرِجت هذه السورة في مقطعين :

1 - **من مشاهد القارعة :** ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ القارعة: ١ – ٥

=== 2 - **ما يتلو مشهد القارعة :**

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

القارعة: ٦ – ١١

التفسير والبيان

1 - من مشاهد القارعة : ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ القارعة: ١ – ٥

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ قال القرطبي : هي القيامة والساعة ، وكذا قال عامة المفسرين ، وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وقد استُخدم لفظ القارعة في القرآن وفي اللغة للدلالة على الأمر الشديد يصيب الفرد أو الجماعة ، وأصل القرع هو الطرق الذين يكون بضرب شيء بشيء آخر ، ومن ذلك قَرْع الباب ، ومن ذلك أيضاً قولهم في المثل : لا تُقْرَع له العصا ، ووفقاً لهذا المعنى فإن القارعة في الآية هي ما تتعرض له الأرض من قرع ، بسبب ما يقع عليها من السماء ، وهو في هذه الحالة سيكون قَرْعاً ذا صوت مهول ، سماه الله بالصاخة في سورة ''عبس'' . وأثر ذلك في هذه السورة هو تشبيه الجبال بالعهن المنفوش ، وذلك بما تتعرض له من قرع ، حالها في ذلك كحال الصوف المتلبد ، يُقْرَع بالعصا فينتفش من جديد .

وهذا التفصيل لا يتعارض مع ما أورده القرطبي ؛ لأن الأصوات المنبعثة من قرع الأرض واضطرابها ومن دك الجبال فيها أمر عظيم ، يفزع منه الإنسان فزعاً شديداً .

● والقارعة لفظ عرفه العرب قبل الإسلام ، إلا أنه لم تكن له هذه الدلالة التي تذكرها الآية ، فكان إلقاء اللفظ إليهم بدون مقدمات سبيلاً لقرع أسماعهم وقلوبهم ، ليكونوا أكثر حضوراً في الاستماع إلى ما يُتْلى من بيان ، ولكن الآية التالية لا تأتي ببيان الكلمة ، إنما تأتي بالسؤال : ﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ وفي ذلك إشعار للإنسان بأنه على غير علم بها . ويتوَقّع المستمع بعد هذا السؤال أن يأتي الجواب ، ولكن الآية التالية تسوق سؤالاً آخر ، ولكن من وجهةأخرى :﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ وهنا يبلغ التوَفُّز ذروته في ترقب الجواب ، وهو ما ذكره جل شأنه في الآيات التالية .

ومجيء البيان على هذا النسق فيه إشارة إلى عِظَم شأن القارعة ، وهو ما توجه إليه أهل التفسير رحمهم الله ، وقد لاح لي في هذه الآيات الثلاث أن الله تعالى جعل ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ محوراً ، وجعل له جناحين :

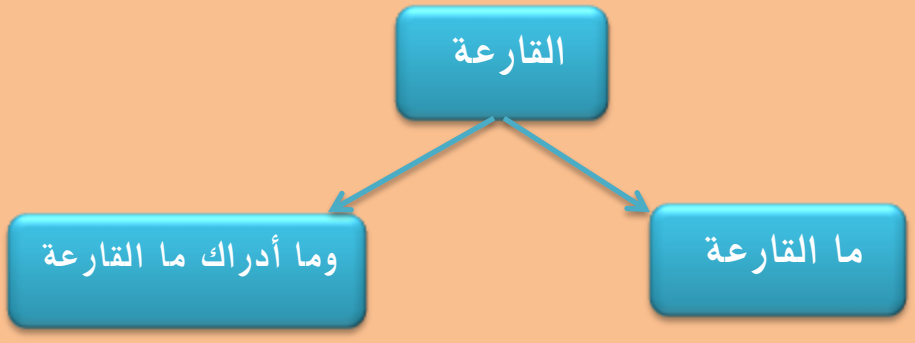

فالسؤال الأول : ﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ يتعلق بماهية القارعة في ذاتها ، والسؤال الثاني : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ يتعلق بواقع علم الإنسان بها ، هل هو على علم بها أم على غير علم ؟

﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾ القارعة: ٤

- كنت قد اخترت في مبدأ الأمر ما اختاره أهل التفسير ، وهو أن هذا المشهد يرسم صورة للناس بعد البعث من القبور ، إلا أنني لم أجد تناسباً بين هذا المعنى وبين ذكر أمر الجبال بعد هذه الآية ، إذ الأولى أن يُذْكَر أمر الجبال قبل بعث الناس من قبورهم ، ولا حاجة لتفصيل ذلك ؛ لأنه أجلى من أن يحتاج إلى البيان .

ولم أجد مخرجاً من هذا التفاوت في التفسير إلا أن يكون وصف الناس بأنهم كالفراش المبثوث إنما هو قبل النفخة الأولى التي يصعق بها من في السموات ومن في الأرض ، ومستندنا في ذلك ثلاث وجوه : **الأول :** ذكر الجبال من بعد هذا المشهد ، ولو كان المراد به

حال الناس بعد البعث لكان لزاماً ذكر الجبال قبل هذه الآية . **والثاني :** ليس في الآية أدنى إشارة إلى معنى البعث من القبور . **الثالث :** قرن أهل التفسير هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ القمر: ٧ ولكنهما ليسا سواء ، وذلك أن آية القمر ذكرت ما يشير إلى البعث ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ والأجداث هي القبور، ولذلك اختلف المشبه به بين الآيتين ؛ ففي آية القمر هم جراد منتشر ، وفي آية القارعة هم فراش مبثوث ، وهذا الاختيار اختيار دقيق التفت فيه العليم الحكيم إلى الصورة التي يكون عليها الناس في كل مشهد :

ففي آية القمر شُبِّه الناس عند خروجهم من الأجداث بالجراد ؛ وفي ذلك نظر إلى أنهم يخرجون من القبور عرايا ، ثم ينطلقون إلى المحشر أفواجاً ، ولون أجسادهم ، في الغالب ، مشابه للون الجراد ، فهم في ذلك كالجراد الذي ينطلق في أرتال مجتمعة . أما آية القارعة فقد شُبِّه الناس فيها بالفراش المبثوث ، ووجه الشبه بينهما تفصِّله لنا طبيعة الفَرَاش، وذلك أن الفَرَاش يمضي في سبيله فيميل مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، وهذا هو حال الناس عند قرع الأرض ، يفرون مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، وذلك تبعاً لما يَعْرِض لهم من هول هنا وهول هناك ، بسبب تعدد القرع الذي تتعرض له الأرض . فإذا جئنا إلى اللون ، أي لون الفَرَاش ، فهو ليس لوناً واحداً كما هو لون الجرااد ، بل هو ألوان عديدة ، وذلك على مستوى الفراشة الواحدة ، و على مستوى جملة الفراش ، وكذلك هم الناس عند مشهد القارعة ، ما زالوا من أهل الدنيا ، وما زالت ألبستهم عليهم ، والألبسة ليست ذات لون واحد ، بل هي ألوان عديدة .

وعندما ذكر الجراد قال ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ وذلك التفاتاً إلى أنه يأخذ مساحات واسعة .وعندما ذكر الفراش قال ﴿ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أي متفرق هنا وهناك ، وهذا هو حـال الناس عندما يلوح

لهم أمر يخشون منه الهلكة .

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ القارعة: ٥

العهن : الصوف ، والصوف في أول أمره يكون منفوشاً ، فإذا جلست عليه زمناً تلبَّد واجتمع إلى بعضه البعض ، ولا سبيل إلى انتفاشه من جديد إلا بضربه بالعصا ، وهو معنى القرع . وقد وُصِفت الجبال في كتاب الله تعالى بأنها أوتاد رواسي ، ولم يكن لها أن تُوْصَف بذلك إلا لاجتماع الذرات المكونة لها ولما بين جزيئاتها من ارتباط شديد ، وهذا هو وجه الشبه بين ترابط الجزيئات والذرات وبين الصوف الذي اجتمع إلى بعضه البعض ، ولكي يصبح الجبل كالعهن المنفوش لا بد من قرعه قرعاً يغير من طبيعة الارتباط بين الذرات والجزيئات ، ليتحول الجبل بأكمله من كتلة صلبة صماء إلى كتلة من التراب المتخلخل ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ المزمل: ١٤ . أي أن الأرض تتعرض لشيء " يَقْرَعُها " فترجف الأرض من هذا القرع ، وترجف معها الجبال لتصبح كالعهن المنفوش ، وذلك قبل أن تصبح كثيباً مهيلاً .

- واختيار " العهن " بدلاً من الصوف فيه التفات إلى طبيعة تكوين الجبال ، وذلك أن العهن هو الصوف الملون ، وفي صفة الجبال قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فاطر: ٢٧ . فالجبال ليست ذات لون واحد ، بل هي ألوان عديدة ، بيضاء وحمراء وسوداء ، فإذا قرعها الله تعالى يوم القيامة بما شاء انتفشت ، فكانت كالصوف المنفوش .

2 ـ ما يتلو ذلك المشهد : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ القارعة: ٦ – ١١

السورة ليست معنية بتفصيل أمر القيامة ، ولذلك اكتفت بذكر مشهدين يتوافقان مع اسم السورة ، ثم انتقلت إلى ذكر الحساب والمآل ، مثلما كان هو الشأن في سورة الزلزلة ، إذ اقتصرت على ذكر الزلزلة وإخراج الأرض أثقالها ، ثم انتقلت إلى مشهد الحساب .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ القارعة: ٦

" فَأَمَّا " أما : حرف شرط وتفصيل وتوكيد ، وذلك أن الله تعالى ، بعد أن ذكر الناس على العموم ، شرع في تفصيل مواقفهم عند الحساب ومآلاتهم .

" مَوَٰزِينُهُۥ " الموازين جمع : موزون وجمع ميزان ، على ما ذكره النسفي ، ولذلك كان اختيار هذه الكلمة اختياراً حكيماً ، دل به المولى عز وجل على وجهين ؛ **الأول :** الدلالة على الميزان تفيد أن الميزان ليس ميزاناً واحداً يتناوبه الناس واحداً تلو الآخر ، فكل إنسان له ميزان خاص به ، وذلك أن الله تعالى يحاسب الناس في وقت واحد ، وقد سُئِل علي رضي الله عنه : **كيف يحاسب الله الناس في وقت واحد ؟ فقال : كما يرزقهم في وقت واحد** . **والثاني :** دلالة الجمع على الموزون تذهب إلى كل ما عمله الإنسان من خير في الحياة الدنيا ، وهذا الموزون إما أن يكون ثقيلاً ، وإما أن يكون خفيفاً ، والثقل لا يتحقق إلا بتعاظم الموزون ، كماً وكيفاً : الكمّ يكون بكثرة الإعمال الصالحة ، والكيف

يكون بعمل ذي قَدْرٍ عظيم يحقق معنى الثقل حتى وإن كانت الأعمال الصالحة قليلة ، ولذلك جاءت الكلمة جمعاً " مَوَٰزِينُهُۥ " التفاتاً إلى اختلاف المستويات في تلك الأعمال ، ومثال ذلك : أنك إذا تصدقت بصدقتين ، إحداهما كانت سراً ، والأخرى كانت علناً كان لصدقة السر وزن غير وزن صدقة العلن .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ القارعة: ٧

هذه الآية جواب الشرط " أما " والحرف ﴿ فِي ﴾ يفيد الظرفية ، أي أن العيشة الراضية ظرف ووعاء يحتوي كل من ثقُلت موازينه ، وقد وُصِفت العيشة بأنها راضية ، **فما هو وجه إسناد الرضى إلى العيشة ؟**

أسند الله تعالى إلى المعيشة صفة الضنك ، وهو قوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ طه: ١٢٤ . فوصف المعيشة بأنها ضَنْك ، أي في ضيق وشدة حتى وإن كان صاحبها من أغنى الناس ، أي أن الضنك يلحق صاحب المعيشة ، وقد جاء في دعاء رسول الله ﷺ : ﴿ اللهم إني أسألك عيشة تقية ﴾ رواه أحمد . فأسند التقوى إلى العيشة مع أنها صفة لازمة لصاحب العيشة ، وكذلك يُقال : عيشة نكدة .

فالعيشة لفظ يُطْلق على كل ما يتوفر للإنسان من أسباب المعاش ، وهو لفظ لا يتحقق معناه إلا بوجود طرفين : الإنسان وأسباب المعاش ،ولذلك هي ليست ذات نمط واحد ؛ لأن توفّر أسباب المعاش ليس واحداً لدى الناس . فإذا التفتنا إلى الإنسان وجدنا أن همه الأكبر هو أن يجد في يديه من أسباب المعاش ما يحقق له السعادة والرضى ، ولكن أسباب المعاش ليست تحت أمر الإنسان ، قال الشاعر :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري لرياح بما لا تشتهي السفن

ولذلك فإن رسول الله ﷺ ، إذ سأل ربه عيشة تقية ، إنما كان يسأله أن لا يَعْرِض له في معاشه إلا كل ما يحفظ عليه تقواه ، أي أن يحجب عنه أسباب المعاش الداعية إلى أبواب الفتنة والمعصية ، وفي هذه الحالة ستكون العيشة عيشة تقية ، فالأسباب تقية لأنها داعية إلى التقوى ، والإنسان تقي ؛ لأنه متلبس بتلك الأسباب .

وكذلك هو الأمر في وصف العيشة بأنها ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ وقد استُخْدم حرف الجر ﴿ فِي ﴾

للدلالة على أن الإنسان مُدْرَج في إطار هذه اللوحة ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فكل ما يَعْرِض له من أسباب المعاش في الجنة يرسم لوحة الرضى . فالعيشة في الجنة عيشة راضية ، أي ماضية أسبابها على النمط الذي يحقق منظومة الرضى ، والإنسان أيضاً راضٍ ؛ لأنه ليس شيء في جنته إلا وهو على خير ما يحب ويرضى . فالعيشة بركنيها ، الإنسان والأسباب ، عيشة راضية .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ القارعة: ٨

الفعلان ﴿ ثَقُلَتْ ، خَفَّتْ ﴾ يدوران حول موزون واحد : إن ثَقُل كان صاحبه في عيشة راضية ، وإن خفَّ كان صاحبه في الهاوية ، وهذا الموزون هو العمل الصالح . وقد ورد في الحديث ما يشير إلى أن الميزان له كفتان ، تُوضع في إحداهما سجلات السيئات ، وفي الأخرى سجلات الحسنات ، ومقياس ثقل الحسنات أو خفتها هو ما تؤول إليه أمام كفة السيئات .

فكان وقوف دلالة الكلمتين ﴿ ثَقُلَتْ ، خَفَّتْ ﴾ على العمل الصالح التفاتاً إلى أن الأصل الذي خُلِق الإنسان ليكون عليه هو إخلاص العبودية لله ، ولكنه سبحانه أراد أن يبتلي الإنسان ، فخوّله الاختيار بين الطاعة والمعصية .

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ القارعة: ٩

هذه الآية جواب الشرط ﴿ وَأَمَّا ﴾ ، والهاوية هي النار ، وقد جعلت الآية من الهاوية أماً لمن خفت موازينه ، **فما وجه نسبة ذلك إليه ؟**

قال القرطبي : سمّاها أماً لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه .

وكنت قد استشهدت بهذه الآية في بيان دلالة "المأوى" في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٣٩ . أما هنا فإن السياق يستدعي بيان دلالة ﴿ أمه ﴾ وتبيان المستوى الدلالي لكون النار أماً لمن خفت موازينه ، وفيما يلي بيان ذلك :

أم الشيء : أصله الذي انبثق منه ، ومن ذلك وصف مكة بأنها أم القرى ، وأصل هذه التسمية أن مكة هي اليابسة الأولى في الأرض ، ومن هذه اليابسة مد الله مساحة اليابسة في الأرض . وفي اللغة يُقال : ضربه على أم رأسه ، أي على وسطه الذي تجتمع عنده أنحاء الرأس . ويُقال أيضاً : رأيته بأم عيني ، أي بمركز الرؤية في العين .

و ﴿الأمية﴾ في تلك الأمثلة لا تقف عند حد أن هذا أصل وذاك فرع ، بل تعني أيضاً ، وبشكل أساس ، الاتصال الوثيق بين الفروع وبين الأصل الذي تجتمع عنده : فاليابسة جميعاً متصلة بمكة ، ومن شواهد هذا الاتصال أن مكة هي مركز التجاذب المغناطيسي

للأرض مع الشمس ، ومركز الرؤية في العين تلتقي عنده مهمات بقية أجزاء العين لتحقيق فعل الرؤية ، والأم إذا ولدت طفلها فإنها لا تنفصل عنه ، بل تبقى على اتصال وثيق يفصح عن نفسه بتعلقها الشديد بطفلها ، ترعاه وتسهر على راحته وتتألم لألمه ، إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره ...

ومن هذا الوجه كانت الهاوية أماً لمن خفت موازينه ، فهي متصلة به حتى قبل أن يدخلها ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان: ١٢ . فقد عرفتهم واغتاظت لمرآهم وهم في موقع بعيد منها ، وما ذاك إلا لوجود نوع من الاتصال بينها وبينهم ، وهي دلالة كونها أماً لكل من خفت موازينه .

ووفقاً لهذا المعنى ، فإن الجنة أيضاً هي أم ، أمٌّ لمن ثقلت موازينه ، وشاهد هذه ﴿الأمية﴾ ما أُسْنِد إليها من شوق إلى أهلها .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ القارعة: ١٠ - ١١

● قوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ استفهام يحمل معنى الإنكار ، أي :إنكار أن يكون المخاطَب على علم بالهاوية ، فالكلمة اسم فاعل من الفعل : هوى يهوي ، وهو التردي من شاهق إلى مكان سحيق ، ولم يكن الناس على علم بما للكلمة من معنى عند الله ، فذكر الله عز وجل لهم ذلك المعنى بقوله : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ . وقوله ﴿ مَا هِيَهْ ﴾ أصله : ما هي ، دخلت عليه هاء السكت ، ومسوّغ هذا الدخول أن الكلمة جاءت في ختام الآية ، ومع الختام يكون السكوت .

- قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أي نار شديدة الحرارة ، وقد يُقال : كيف تُوصَف النار بأنها حامية مع أن ذلك حاصل فيها ؟ فأقول : بالفعل ، النار لا تكون إلا حامية ، فكان التوجه إلى وصفها بأنها حامية إشارة إلى أنها أعظم حرارة من النار التي يعرفها الإنسان ، وهو قول رسول الله ﷺ : ﴿ **ناركم هذه التي يُوْقِد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم** ﴾ **قالوا : إِنْ كانت ، واللهِ ، لكافية يا رسول الله ، قال :** ﴿ **فإنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلها مثل حرها** ﴾ رواه مسلم

الفهرس

سورة الزلزلة 2
سورة العاديات 16
سورة القارعة 32